الفقر فى أثناء الخطب تأييداً لفكرة ، أو تكملة نقص ذهبت به الرواية أما أن يكون خطبة با كملها أو كتاب من كتبه بجملته انتحل انتحالا فهذا بعيد ، والذى يتأمل بعض تعليقات جامع الكتاب ، وكلامه فى تصديره يدرك الفرق الشاسع بين اسلوبه وأسلوب أمير المؤمنين .

نماذج من كلامه

قد كان فيما ذكرنا لك من الخطب والفقر فى ثنايا ماقدمناه غنية عن التطويل بذكر نماذج من غرر كلامه ، وكان فى مكنتنا أن نحيلك على « نهج البلاغة » لتأخذ منه ما تريد ونحن فاعلون ؛ إذ كل كلامه — رضى الله عنه — منتخب مختار ، ولكنا سنذكر صبابة من فيض لتكون باعثا لهمتك على الانس برياضه .

(١) خطب رضى الله عنه يستنهض الناس الى الدفاع عن ديارهم عند اغارة الضحاك بن قيس عليهم «أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الاعداء ! تقولون فى المجالس كيت وكيت، فاذا جاء القتال قلتم حيدى حياد[1] !ماعزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليل ، بأضاليل ، دفاع ذى الدين المطول[2] ، لايمنع الضيم الذليل ، ولايدرك الحق الا بالجد أىّ دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى أمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور

---

(١) حيدى حياد بكسر الحاء مقالة الهارب من الحرب يسألها التنحى عنه : من الحيدان : بمعنى الميل والانحراف عن الشىء

(٢) الدين بفتح الدال المشددة ، والمطول : الكثير المطل المؤخر للدين بلا عذر

والله من غررتموه ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب[١] ومن رمى بكم فقد رمى بأفواق ناصل ؛[٢] اصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، مابالكم ! مادواؤكم ! ماطبكم ؟ ! القوم رجال أمثالكم ، أقوالا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعا فى غير حق»

(٢) وخطب أيضا فقال :

«وأحذركم الدنيا فانها منزل قلعة ، وليست بدار نجعة ، قد تزينت بغرورها ، وغرت بزينتها . هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها ، وخيرها بشرها ، وحياتها بموتها ، وحلوها بمرها ، لم يصفها الله تعالى لاوليائه ولم يضن بها علي اعدائه ، خيرها زهيد وشرها عتيد ، وجمعها ينفد ، وملكها يسلب ... إن الزاهدين فى الدنيا تبكي قلوبهم وان ضحكوا ، ويشتد حزنهم وان فرحوا ، ويكثر مقتهم انفسهم وان اغتبطوا بما رزقوا قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال ، وحضرتكم كواذب الآمال فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة ، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة ، وانما أنتم اخوان على دين الله ، ما فرق بينكم الا خبث السرائر ، وسوء الضمائر ، فلا توازرون ، ولا تناصحون ولا تبادلون ، ولا توادون الخ

(٣) ومن كلامه لاصحابه فى ساحة الحرب . —

فقدموا الدارع[٣] واخروا الحاسر ، وعضوا على الاضراس ، فانه

---

(١) احد سهام الميسر الذى لاحظ له (٢) الافوق من السهام مكسور الفوق ، والفوق موضع الوتر من السهم والناصل الخالى عن النصل (٣) الدارع لابس الدرع ضد الحاسر

أنبى للسيوف عن الهام والتووا فى اطراف الرماح فانه أمور للأسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجأش ، واسكن للقلوب، واميتو الاصوات فانه أطرد للفشل ، ورايتكم فلا تميلوها، ولا تخلوها ،ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، والمانعين الذمار منكم الخ .

(٤) ومن كتاب له رضى الله عنه إلى معاوية : —

وكيف أنت صانع اذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها ، وخدعت بلذتها ، دعتك فأجبتها ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرتك فاطعتها . وإنه يوشك أن يقفك واقف على مالا ينجيك منه مجن . فأقعس عن هذا الأمر ، وخذ أهبة الحساب ، وشمر لما نزل بك ولا تمكن الغواة من سمعك ، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك ، فانك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ؛ وجرى منك مجرى الروح والدم الخ ....

ومن وصاياه رضى الله ماقاله للحسن والحسين — رضى الله عنهم — لما ضربه ابن ملجم :—

أوصيكما وجميع ولدى وأهلى ومن بلغه كتابى بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فانى سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » الله الله فى الأيتام فلا تغبوا أفواههم [1] ولا يضيعوا بحضرتكم . ! والله الله فى جيرانكم فأنهم

---

(١) أغب القوم : إذا جاءهم يوما وتركهم يوما المراد صلوا أفواههم باطعامهم حتى لا يتخلل ذلك قطيعة .

وصية نبيكم مازال يوصى بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ! والله الله فى القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم ! ! والله الله فى الصلاة فأنها عمود دينكم والله الله فى بيت ربكم لاتخلوه مابقيتم فانه إن ترك لم تناظروا والله الله فى الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم فى سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتبادل والتقاطع : لا تتركوا الأمر بالمعروف ،والنهى عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ،

يابنى عبدالمطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا تقولون: قتل أمير المؤمنين ! لا تقتلن بى إلا قاتلى ! انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ،ولا يمثل بالرجل ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

ومن حكم الأمام رضى الله عنه مايأتى :

استنزلوا الرزق بالصدقة . قلة العيال أحد اليسارين . الهم نصف الهرم . المرء مخبوء تحت لسانه . هلك امرؤ لم يعرف قدره . الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل فى باطل إثمان: إثم العمل به ، وإثم الرضا به . من ملك استأثر . من كتم سره كانت الخيرة بيده . الفقر الموت الأكبر . كم من أكلة منعت أكلات . آلة الرياسة سعة الصدر . الطمع رق مؤبد . لم يذهب من مالك ماوعظك . ان هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها من طرائف الحكمة . أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع . المرأة شر كلها وشر مافيها أنه لابد منها . الناس أعداء ماجهلوا .

أبو حمزة الخارجي

نظرة عامة فى الخوارج : ليس فى أحاديث التاريخ الاسلامى ، والنضال المذهبي ، حديث أعجب لنفس الباحث ، ولا أمتع لعقل الأديب ، ولا أرهف لحسه ، ولا أخصب لذهنه ؛ من حديث الخوارج فى نضالهم السياسى ، وجدالهم المذهبى ، على تناقض مظهرهم لمخبرهم ، وتباين احوالهم وشدة شكيمتهم ؛ مما لم يحفظ التاريخ مثله لفرقة سياسية ، أو مذهب دينى ، سموا أنفسهم « الشراه » لأنهم - كما يزعمون - باعوا أنفسهم لله تعالى ، فاستعذبوا الموت حتى أن احدهم ليطعن بالرمح فيسعى الى قاتله وهو يقول : « وعجلت اليك رب لترضى .!! » قيل وسموا « بالصفرية » لصفرة أبدانهم من كثرة صيامهم وقيامهم .

خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد حادث التحكيم ، وكفروه ، وكفروا أصحابه ؛ وعاثوا فى سيرة الخلفاء وأجلاء الصحابة ، وأفسدوا فى الارض ، فقاتلهم بعد أن ناظرهم بنفسه وعلى لسان ابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ، فلما فاج عليهم حبر الأمة وضعوا اصابعهم فى آذانهم ، وقالوا له : أمسك عنا غرب لسانك يابن عباس فانه طلق ذلق ، غواص على موضع الحجة !

عجبا لهم ! يرون قتل الخنزير إفسادا فى الارض ، وقتل عبد الله بن خباب بن الأرت ثانى وليد فى الاسلام بعد ابن الزبير إصلاحا فيها ، حدثنا أبو العباس المبرد : أن عبد الله بن خباب لقيهم وفى عنقه مصحف ،

ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له : إن الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم : ما أحيا القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه، فسألوه عن الحكومة والتحكيم، فقال : « إن علياً أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة » قالوا : إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على اسمائها، ثم قربوه الى النهر فذبحوه!! ومن مضحكات أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا، فقتلوا المسلم، وأوصوا بالنصرانى، فقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ؟! وإن تعجب فعجب قول أثيمهم عبدالرحمن ابن ماجم، وقد قتل أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين، فقطعت يداه ورجلاه فلم يجزع فلما عمدوا الى لسانه جزع فقيل له: لم نرك جزعت عند قطع يديك ورجليك، ونراك الآن جزعت فقال نعم : إنى أحببت أن ألقى الله ولسانى رطب بذكره !! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا!

وكان فى جملتهم لدد، وبصر بمواطن الحجة، وثبات جنان عند المحنة، روى أنه جىء برجل منهم الى عبد الملك بن مروان، فبحثه فرأى ماشاء فهما وعلما، ثم بحثه فرأى ماشاء إرباً ودهياً فرغب فيه واستدعاه الى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصرا محققاً، فزاده فى الاستدعاء، فقال لعبد الملك. لتغنك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل، فقال عبد الملك : قل فجعل يبسط له من قول الخوارج، ويزين له من مذهبهم، حتى قال عبد الملك — على جلالة قدره فى معرفته — لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم، ثم قال . من

شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى !! ..

والخوارج كغيرهم من الفرق الاسلامية افترقوا فرقا كثيرة ، ووجهوا الأدب العربى توجيها موضوعيا دلميا ، وقد امتاز أدبهم بالقوة والصراحة ، وكان من أشهر فرقهم فى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فرقة (الاباضية) اتباع عبد الله بن إباض ، وإليهم ينتسب «أبو حمزة» ، مترجمنا فقد كان من خطبائهم الذين لهم مقام فى حلبة البراعة والبيان .

أولية أبى حمزة : قال أبو عثمان الجاحظ : هو أحد نساك الاباضية وخطبائهم ، واسمه «يحي بن المختار» ويلقبه صاحب العقد (بأبى حمزة الشارى) نسبة الى « الشراه » وهو اسم يقع على جملة الخوارج ، لأنهم كما سبق يزعمون أنهم شروا أنفسهم لله تعالى ، ومهما يكن فان أبا حمزة لم يظهر لنا أثره ، ولم نسمع ذكره إلا فى خلافة « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية ، فأن الأمة لما انتقضت عليه فى أطراف المملكة انتهز «عبدالله ابن يحيي » الملقب بطالب الحق الفرصة فخرج عليه باليمن ، وخلع طاعته ، وانضم اليه قوم من الخوارج ، وكانوا أربعمائة يتزعمهم أبو حمزة ، وبكار بن محمد العدوى القرشى . وفى ذلك يقول أبو حمزة : « إنا والله ماخرجنا أشراً ولا بطرا ولا لهواً ولا لعبا ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها ، ولا لثأر قد نيل منا . ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت . وكثر الادعاء فى الدين ، وعمل بالهوى ، وعطلت

الاحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائل بالحق؛ سمعنا مناديا ينادى الى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا داعى الله، ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض»

زحفه على مكة: فى سنة تسع وعشرين ومائة هجرية زحف ابو حمزة بطائفته على مكة، فوصلها والناس وقوف بعرفة، فلما رأوهم قالوا لهم: ماشأنكم؟ فقال ابو حمزة: انا نبرأ من مروان وآل مروان، وكان واليا على مكة آنئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، فراسلهم فى الهدنة؛ فقال ابو حمزة: نحن بحجنا أضن، ونحن عليه أشح، وصالح عبد الواحد اباحمزة ومن معه من الخوارج على انهم جميعا آمنون حتى ينفر الناس النفر الاخير ويصبحوا من الغداة، فوقف ابو حمزة وأتباعه على حدة فى عرفات.

ولما انتهى الناس من حجهم بعث عبد الواحد الى ابى حمزة: عبد الله بن الحسن بن علىّ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن ابى بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب؛ فى رجال من أمثالهم، فدخلوا على أبى حمزة وعليه ازار قطن غليظ، فتقدم اليه حفيدا علىّ وعثمان، فنسبهما فانتسبا له، فعبس فى وجهيهما، وأظهر الكراهة لهما، وهذا من عقيدة الخوارج قاطبة، فهم يتنقصون الخلفاء جميعا إلا ابا بكر وعمر، ثم تقدم اليه حفيدا أبى بكر وعمر، فانتسباله، فهش اليهما وتبسم فى وجهيهما، وقال: والله ماخرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما، فغضب عبد الله بن الحسن وقال: والله ماجئنا لتفضل بين آبائنا: ثم خلى عبد الواحد مكة وفر الى المدينة فدخلها ابو حمزة وأتباعه بغير قتال وفى ذلك يقول

بعض الشعراء :

زار الحجيج عصابة قد خالفوا دين الاله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والامارة هاربا ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه لصغت مضاربه بعرق الوالد

وهذا غريب يدلنا على ارهاب الخوارج ، وانزعاج الناس منهم ، فان اربعمائة رجل مهما يكن امرهم من القوة لا يكونون شيئا مذكورا فى جانب الألوف من الحجاج الذين لو سلطهم الوالى عليهم لأ بادوهم ، قال الطبرى : فلما كان الناس بمنى ندّموا عبد الواحد ، وقالوا . قد اخطأت فيهم ، ولو حملت الحاج عليهم ما كانوا إلا أكلة رأس .

زحفه على المدينة : تجهز أبو حمزة بعد أن استجم اصحابه قوتهم للسير إلى المدينة ، فلما بلغها فر عبد الواحد ابن سليمان إلى الشام ، وترك أهل المدينة يلقون الخوارج ، وقد تهيأ الناس للقتال ، فقال لهم ابو حمزة إنا والله مالنا حاجة بقتالكم ، دعونا نمض الى عدونا ، فأبى أهل المدينة ، فقتلهم الخوارج لم يفلت منهم إلا الشريد ثم وجه إليهم « مروان بن محمد » أربعة آلاف انتخبهم من عسكره ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية فقاتلوهم حتى أمسوا فصاح الخوارج : ويحك يابن عطية ؟؟ إن الله قد جعل الليل سكنا ، فاسكن نسكن ، فأبى عليهم ، فقاتلهم حتى أفناهم ، وهرب أبو حمزه فى نفر قليل من أصحابه .

عقيدته ومذهبه : يتفق جميع الخوارج فى أشياء كثيرة هى أصول مذهبهم ، وفيصل ما بينهم وبين المسلمين ، ويختلفون بعد ذلك فى فروع

ترجع إلى اعتبارات مذهبية ، فهم يتفقون فى تكفير مرتكب الكبيرة ، قال أبو حمزة وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ومن شك فهو كافر ، ومن شك أنه كافر فهو كافر ! ويتفقون فى تنقيص الخلفاء أجمع ويكفرونهم إلا أبا بكر وعمر ، قال ابن عبد ربه فى العقد بعد أن ذكر خطبة أبى حمزه فى المدينة : اسقطنا من هذه الخطبة ما كان من طعنه على الخلفاء ، فانه طعن فيها على عثمان وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما وعمر بن عبد العزيز ، ولم يترك من جميع الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، وكفر من بعدهما فلعنة الله عليه .

أدبه وخطبه : أبو حمزة يعد من خطباء الخوارج المبرزين، وفصحائهم النابهين المناضلين عن مذهبهم ، المستميتين فى نصرتهم قولا وعملا ، وأسلوبه جزل رصين يعتمد على قوة الحجة والصراحة فى غير تقية فهو يمثل ناحية مذهبية أساسها الخصومة واللجاج ، فأدبه يلمس مواطن الاحساس من النفوس ويستهوى القلوب والعقول . ترى فيه ميلا إلى الزهد فى الدنيا ، ونقدا شديدا لاسيما على الولاة ومجموع الخلفاء ، وسنرى شيئاً من ذلك فيما نذكر لك من :

نماذج كلامه

خطبته بمكة : قال الجاحظ ، دخل أبو حمزة الخارجى مكة فصعد على منبرها متوكئا على قوس له عربية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(أيها الناس إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايتأخر ولا يتقدم إلا بأذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله له كتابا بين له

فيه ما يأتى وما يتقى ، فلم يكن فى شك من دينه ولا شبهة فى أمره ، ثم قبضه الله اليه وقد علم المسلمين معالم دينهم ، وولى أبا بكر صلاتهم فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم، فقاتل أهل الردة وعمل بالكتاب والسنة فمضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ... ثم ذكر عمر فأثنى عليه ، ثم أخذ يذكر الخلفاء واحدا واحدا طاعنا عليهم ناقدا لأعمالهم الى أن قال : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ... وأما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ فى الدين ولا بعلم نافذ فى القرآن ، ينقمون المعصية على أهلها ، ويعملون اذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ، جفاة عن القرآن أتباع كهان ، يؤملون الدول فى بعث الموتى ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا. قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون)

وصف أصحابه : ثم قال : (يا أهل الحجاز أتعيروننى بأصحابى ، وتزعمون أنهم شباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا ؟ أما والله انى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء

عبادة ، واطلاح سهر (١) فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحية اصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بذكر آية من ذكر الجنة بكي شوقا اليها وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الارض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله حتى اذا رأوا السهام قدفوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قدانتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلف رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت اليه سباع الارض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين فى مناقير طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ؟ وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله . ثم قال أوه ، أوه ، أوه ثم بكى ، ثم نزل

خطبته بالمدينة : قال ابن عبدربه فى العقد . قال مالك ابن أنس رحمه الله ، خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر ، وردت المرتاب قال : (أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ وصلة الرحم ، وتعظيم ماصغرت الجبابرة من حق الله ، وتصغير ماعظمت من الباطل ، وإماتة ماأحيوا من الجور ، واحياء ماأماتوا من الحقوق ... إلى أن قال : يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، إنكم

---

(١) النضو : الخفيف اللحم من التعب والطلح بالكسر . المهزول

أطغتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذى عوج بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين فاصبحتم عن الحق ناكبين أمواتا غير أحياء وما تشعرون، ياأهل المدينة !! ياأبناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان، ماأصح أصلكم، وأسقم فرعكم !! كان آباؤكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين والبصائر الناقدة والقلوب الواعية، وأنتم أهل الضلالة والجهالة استعبدتكم الدنيا، فاذلتكم والامانى فاضلتكم، ففتح الله لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه، سراع الى الفتنة، بطاء عن السنة. عمى عن البرهان، صم عن العرفان، عبيد الطمع، حلفاء الجزع نعم ماورثكم آباؤكم لو حفظتموه، وبئس ماتورثون أبناءكم إن تمسكوا به، نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل، كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثير خبيث، اتبعتم الهوى فأرداكم، واللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون الخ.

خطبة أخرى له. أما بعد فانك ناشىء فتنة وقائد ضلالة، قد طال جثومها، واشتدت عليك غمومها، وتلونت مصائد عدو الله، وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عمى فى عواقبها، فلن يهز عمودها ولن ينزع أوتادها إلا الذى بيده ملك الاشياء وهو الرحمن الرحيم، ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا فى ظلامها، ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور فى افواههم تزهو، وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا منهج السبيل وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم الخ

زياد

« لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه من قريش
لساق الناس بعصاه » عمرو بن العاص

مولده ونشأته: هناك أمة تسمى «سمية» وهبها أبو الخير الكندى إلى الحرث بن كلدة الثقفى طبيب العرب فزوجها الحرث هذا عبدا لابنته يسمى «عبيدا» فولدت على فراشه ـ زيادا ـ فى السنة الاولى من الهجرة . بيد أنه ماترعرع وشب حتى شبت معه خصال عجيبة كانت مفخرة ثقيف فى الاسلام، ولله هي من خصال تجمع بين بديهة فذة، وحيلة واسعة ومكر كبير، ودهاء اكبر، يحدوها بصر بالسياسة، وحزم فى الرأى وصدق فى العزيمة الى قوة فى الحجة، وافصاح عما يجيش بالصدر فى نصاعة بيان وأسر أسلوب، لسان حديد، وعارضة قوية، وشكيمة عنيفة ان لانت حينا قست احيانا! فتى أعجب بعمر بن الخطاب فأشرب حبه حتى أعجب به عمر بن الخطاب نفسه اعجاب العارف بقدره المشفق من ذكائه ودهائه . فهذا أبو سفيان بن حرب يخطب وده خضوعا لتلك الخصال فيدعى بنوته وطالما أسرها فى نفسه!!

وتلك الخصال العجيبة نفسها هى التى حدت بأبى موسى الاشعرى أن يستكتبه فبهر الناس بفضل عقله، وبعد غوره حتى كان من اعجاب

ابن الخطاب به واشفاقه منه ان عزله من عمله ، فلما استوضحه الامر : (لم عزلتني أعن خيانة ام عجز ؟) كان جواب الخليفة له : (لا عن واحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل العامة على فضل عقلك !)

ألا وان مثل هذه الخصال العجيبة الى فضل ذلك العقل الجبار لهي التي حدت بأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أن يستفتي عنها خاطاءه حين اضطربت عليه فارس وخب أهلها في الفتنة ووضعوا فلم يجدوا — — وقد نخلوا اليه مخزون رأيهم — الا ابا المغيرة لها فوجه به تلقاء فارس فأخذ يدأب في ان ينفث ريح التناقس بينهم ويوغر صدور بعضهم على بعض حتى اشعلها نارا من الشقاق تلتهب رؤوس المشاغبين فانكبوا على بعضهم متهالكين وهنا اتسع الخرق على الراقع وتفتحت ابواب الشرور تنادى زيادا أن يدخل من ايها شاء ، وسرعان ما امسك بنواصي الأمور يدبر لعلي الشئون، في وفاء المستميت، حتى اذا قتل علي واستقامت الامور لمعاوية لم يجد قذى في عينيه ، وشجى تكاد تغص به خلافته سوى زياد خشية أن يعيدها جذعة وقد ملك نواصي فارس وضبط فيها القلاع.

فرأى مما ليس منه بد أن يوسط اليه المغيرة بن شعبة يتلطفه فيستقدمه فيدعي أخوته نهارا جهارا في ملإ من الناس ويشهدهم على ذلك اشفاقا على ملكه منه ومن ساعتئذ أصبح يدعى زياد بن أبي سفيان

وفي هذا الموقف وقف زياد يسجل ماحدث في زهو وبراعة فيقول «أما بعد فهذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لي بآخره، وقد قال امير المؤمنين ما بلغكم وشهد الشهود بما قد سمعتم . فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس

وحفظ ماضيعوا ! فأما عبيد فانما هو والد مبرور أو ربيب مشكور» ولولم يكن من تقدير معاوية لزياد سوى أن جعله أول وال على العراقين لكفى ! : لقد ولاه البصرة وخراسان ثم جمع له بين السند والبحرين وعمان ثم شفع ذلك كله بالكوفة فامتدت عينا زياد إلى الحجاز أيضا حتى كتب إلى معاوية : انى قد أخذت العراق بيميني وبقيت شمالى فارغة يعرض بالحجاز : غير أن منيته قد عاجلته قبل أن تتحقق أمنيته فمات بالكوفة سنة ٥٣ ودفن بالثوية ـ موضع بالكوفة ـ ورثاه حارثة بن بدر الغدانى بمرثية منها :

صلى الاله على قبر وطهره عند الثوية يسفى فوقه المور
زفت اليه قريش نعش سيدها فثم كل التقى والبر مقبور
أبا المغيرة والدنيا مفجعة وان من غرت الدنيا لمغرور
لو خلد الخير والاسلام ذا قدم إذا لخلدك الاسلام والخير

المؤثرات فى حياته الأدبية : إلى هنا يمكنك أن تطوى حياة زياد السياسية والأدبية فى طورين. يبتدئ أولهما بالسنة السادسة عشرة من عمره : يوم أن عجم عيدان المنبر بين يدى فحول العرب وشيوخ الخطباء أضراب على بن أبى طالب وأبى سفيان وعمر بن الخطاب ؛ وينتهى بصيرورته أول وال جمع له بين العراقين سنة ٤٩هـ وثانيهما يبتدئ بهذه السنة وينتهى بوفاته سنة ٥٣هـ

وهو فى الطور الأول تراه قد شب بين ربوع ثقيف ونشئ وسط

فتيانها الأروع البهاليل

وفى هذا الطور قد احتك بالقواد والرؤساء والعمال والقضاة والعلماء بله الخلفاء انفسهم وكلهم أبيناء لايشق لهم غبار. وفى هذا الطور أيضا زج به فى معامع الفتن ومختلف الأحداث وخاصة فارس حين اضطربت على أمير المؤمنين (على) رابع الخلفاء الراشدين فأعمل ذكاءه النادر ودهاءه البارع وحيلته الواسعة ومكره الشديد وهو لم يزل بعد فتى كاتبا قارئا

خطيبا مبينا أروع القلب حديد اللسان

على أنه لم ينسلخ من هذا الطور على ما فيه من أحداث امتدت بامتداده، ويندمج فى الطور الثانى على قصره حتى كانت الأحداث تستقبله فألفت فيه رجلا قد نضج تكوينه العقلى والسياسى معا وبصرت بمخلوق عجيب لاتدرى أقوله يسبق عمله أم عمله يسبق قوله؟

على أنه يلبس لكلتا الحالتين لبوسها

ولم لا، وقد اشتد أزره وقوى عوده وكملت تجاريبه، وبرزت صلابته وعلا شأنه بتوفيقه فى أعماله وباثبات نسبه فى قريش وانتمامه إلى أبى سفيان؟ أجل لقد تجلت بواعث نفسه الخفية فى هذا الطور كما كونتها له حياته الأولى فكنت تراه بحرا من الفصاحة ترتطم أمواجه أوشعلة

من الذكاء ملتهبة ترمى بشرر كالقصر

ومهما يكن فهذا الشعبى يقول: «ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسىء الا زيادا فانه كلما أكثر كان أجود كلاما»

وأنت إذا خلوت ونفسك وفقهت ماجرى بينه وبين الخلفاء، والولاة والقضاة والعلماء من قول: علمت صدق ماحدثناك. كتب اليه الحسن ابن على فى رجل من شيعته، وعنون كتابه بقوله: من الحسن بن على إلى زياد فاستشاط غضبا لأنه قدم نفسه عليه ولأنه لم ينسبه إلى أبى سفيان !! فرد عليه بكتاب عنوانه «من زياد بن أبى سفيان الى حسين أما بعد فانك كتبت الى فى فاسق لايأويه الا الفساق وأيم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فانى أحب أن آكل لحماً أنت منه !»!

على أنك تجد لزياد من القول مايشبه الكلم الجوامع مع بصر بتقدير الأمور وتدبير للرعية فكان مما قال «يعجبنى من الرجل إذا سيم خطة الضيم أن يقول -لا- بملء فيه وإذا أتى نادى قوم علم أين ينبغى لمثله أن يجلس فجلس -اثنان لاتقاتلوا فيهما العدو الشتاء وبطون الأودية - الامرة تذهب الحفيظة — المستشار مؤتمن — إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة» هذا، وإنك لترى له صورة صادقة من حياته الأخيرة فى خطبته «البتراء» الشهيرة، ففيها ترى نفسه شاخصة، ماثلة، ترى نفسا جريئة مطبوعة على حب الأثرة، والادلال بالمكانة ترى نفسا فانية فى تركيز سلطان بنى أمية فى النفوس إن كرها وإن طوعا: فيها ترى شدة وقسوة على الشاغبين كأن أسدا يتوعد ويتهدد، أو بحرا يرغى ويزبد.

لقد حاول أن يكون ابن الخطاب فى السيرة والمعدلة ولكنه أفرط فكبا، تلمس هذا فى «برنامجه» السياسى الذى جلل به عنوان مجلسه

إذ يقول : «لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف» على حين أن يفرض على المسلمين عقوبات قاسية لم يألفها الناس على عهد خلفائهم وولاتهم من قبل يحرق من أحرق ، وينقب عن قلب من نقب عن بيت ، ويدفن من نبش عن قبر ميت : حيا ، ويأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمطيع بالعاصى ؛ فأين هذا من سياسة عمر ؟! وبعد ، فمهما اشتط زياد وقسا على الرعية ، ومهما أخذ بالتهمة ، ومهما تجاوز سيرة سلفه فى العقوبة : فقد أمسك بزمام الفتنة الجامحة التى طالما تعثر أهلها فى فضل خطامهم ؛ كما خزم أنوف الشريرين ، ورد النفوس العازبة الى مراحها وبطش بالعاثين فى الأرض فسادا فاطمأنت قلوب الوجلين ، وخافته نفوس الغاوين فعنت لسلطانه الوجوه وشمل الأمن الناس أجمعين وكما قيل « لايفل الحديد إلا الحديد » وحسب الناس أمنا لهم ان كان الشىء يسقط من يد الشخص فلا يعرض له سوى صاحبه أحد ، وأن يبقى باب البيت مفتوحا فلا يلجه أحد ، وحق لزياد أن يقول : «لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت من أخذ به » حتى صار كأنه المعنى بقول العربى :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت ان المنتأى عنك واسع

نماذج من خطب زياد : —

خطب بالبصرة قبل أن يستلحقه معاوية بنسب أبى سفيان ، وكان يومئذ من خلصاء على فانحاز الى الازدية واستنصر بهم على التميمية الذين وقفوا الى جانب عبد الله بن الحضرمى ، وكان موفدا من قبل معاوية لانتزاع البصرة

فقال زياد بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يامعشر الأزد . انكم كنتم أعدائى فأصبحتم أوليائى وأولى الناس بى ، وإنى لو كنت فى بنى تميم وابن الحضرمى فيكم لم أطمع فيه أبدا وأنتم دونه : فلا يطمع ابن الحضرمى فى ، وأنتم دونى ، وليس ابن آكلة الأكباد - فى بقية الأحزاب وأولياء الشيطان - بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين فى المهاجرين والأنصار ، وقد أصبحت فيكم مضمونا وأمانة مؤداة ، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل ، فانكم لاتحمدون إلا على النجدة ولا تعذرون على الجبن »

خطبته التبراء (فى البصرة أيضا)

« أما بعد ، فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم : من الأمور التى ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ... ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ ... ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدما وإحراقا ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم

أخاه فيقول: « انج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم ، ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى واعلموا أن عندى أمثالها... وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه .. إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته ، فاذا فعل ذلك لم أناظره.. واذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على إذلاله وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى .

الحجاج

واليك شخصية أخرى ، أكبر عقلا ، وأقوى شكيمة ، وأشد بطشا وفتكا هى شخصية : أبى محمد الحجاج بن يوسف بن عقيل الثقفى أماوأبا كان مولده بالطائف سنة ٤١ هـ إحدى سنى الأحداث والفتن ، والعداوات والاحن ، والمنازعات والمشاحنات ، وتنازع السلطان أو الخلافة ، ذلكم الصراع العنيف بين العراقيين والشاميين ، فيالها من فترة أفعمت النفوس أسى وأصارت القلوب مراجل تغلى ، وخلفت الألسنة أسيافا بواتر فى حزبية شديدة تلقن النفوس مبادئها كما تلقن الولدان عقائدها : وإذا بالحجاج يطل برأسه على تلك الأحداث ، ويشرف بنفسه

على مختلف هذه الشئون حتى اصطبغ بصبغتها ، فاندمج فى معامعها متفيئا ظلال خلافة معاوية وابنه يزيد حتى مروان بن الحكم فكان للمراونيين أعينهم التى بها يبصرون ، وأيديهم التى بها يبطشون ، وآذانهم التى بها يسمعون ، وألسنتهم التى بها ينطقون : ماكادت تشتد أوصاله ، ويتفجر ذكاؤه ، وينضج عقله أثناء خلافة عبدالملك حتى انسلخ عما ألف أمثاله فى حياتهم الأولى واستقبل حياة جديدة هى حياة الكفاح والجلاد ، وتأثيل سلطان الأمويين عمل بديئا فى شرطة روح بن زنباع وزير الخليفة عبد الملك ولأمر ما أثنى عليه روح عنده فولاه عبدالملك رياسة شرطته فاذا بالحجاج يبدى مهارة فائقة ، وكفاية نادرة مما جعل عبد الملك معجبا بدقة تصرفه فى الأمور ؛ وحسن تخلصه من المعضلات (١) فرأى فيه ماملأ عينيه فى توليته رياسة جيش وجهه

«١» شكا عبد الملك بن مروان مارأى من انحلال عسكره فى إحدى الغارات فأشار عليه روح بن زنباع بالحجاج في أن يقلده أمر عسكره فأجابه إلى ذلك وما استطاع أحد ان يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح فقال لهم «مامنعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فقالوا له ـ وقد كانوا على طعام يأكلون ـ انزل يا ابن اللخناء فكل معنا . فقال: هيهات ! ذهب ماهنالك ! ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط ، وطوفهم فى العسكر ، وأمر بفساطيط روح بن زنباع فاحرقت بالنار فدخل روح على عبدالملك شاكيا باكيا قائلا ياأمير المؤمنين : الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى ، وأحرق فساطيطى . قال على به ! فلما دخل عليه قال ماحملك على مافعلت ؟ قال الحجاج ماأنا فعلته ياأمير المؤمنين . قال ومن فعله ؟ قال أنت والله فعلت ، انما يدى يدك وسوطى سوطك ! وما

لحرب عبد الله بن الزبير فى الحجاز وهناك أعلن حقده الدفين ، وأبرز أخص ما انطوى عليه من الغيظ فتجلت نفسه الامارة ، وفظاظة قلبه الغليظ. فبدا مبلغ شغفه بسفك الدماء (١) فى بلاد هى مهبط الوحى ومغـدى الرسالة ! : أمانى أُشربها وهو صغير فأخذته نشوتها وهو كبير ! سنتان لابن الثلاثين فى الحرمين يمثـل فيهما بابن ذات النطاقين وأول مولود فى الاسلام ويرمى الكعبة بالمنجنيق ويحاصرها أياما ويرمى أهلها بطغام أهل الشام ويستخف بأهل الورع والتقوى من بقيـة المهاجرين والأنصار وأبنائهم فيسومهم الخسف ، ويذيقهم مرير العذاب أشكالا وألوانا !! جدير بمثل هذه الشخصية الظافرة الغلابة المؤثلة لسلطان بنى أمية والمروانيين أن لا يغيب شبحها عن عبد الملك حين أراد قمع الفتن العراقية ، فلم تـكد تقبل سنة ٧٥ ﻫ حتى أقبل فى غضونها كتاب عبد الملك إلى الحجاج يوليه أمر العراق ليطفىء الفتن المندلعة ويقوم المعوج من السير ويقصم ظهور قوم يمسون فى الفتنة موضعين ويصبحون فى النفاق مدهنين. نعم ارموا بالحجاج ؛ ويأويحهم

على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له فأعجب بذلك عبد الملك وقدم الحجاج في منزلته وأعاض ابن زنباع ماذهب له

«١» يقال ان عبد الملك لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير قال الحجاج يا أمير

بمن رموا ! رموا بمن لايعرف ! الهوادة فى الأمور ولايخدعه الرفق بالانسانية ولا تلين قناته لغامز ولا يتقى الله فى عباد الله !! نعم هم قوم مردوا على النفاق وخرجوا على كل أمير ولم يكفهم رزء الأمة بمصابها فى الحسين بن على ، ولم يتعظوا بأخذ زياد إياهم ، وبطشه فيهم فسلط عليهم — من أعمالهم — هذا الجبار الذى لا يرحم ، وهذا الصقر الذى لا يغفو ، وهذا المارد الذى يرونه معهم فى خلواتهم وجلواتهم : الحجاج ابن يوسف قاتل عشرات الألوف من النفوس صبرا !!

هذا هو الحجاج الذى أحب زياداً حباجما ، واقتفى آثاره شدة وبطشا فسام الناس سوء العذاب . يالله ! عشرون سنة فى العراق كانت أظهر مظاهر الأحداث والوقائع فى الدولة دبج تاريخها الحجاج بسيفه ، وخط سطورها من دماء المسلمين حتى أزعج الخلافة فى مقرها ، وخلى عبد الملك — فى خلافته — ترعد فرائصه فراح — وقد بلغ السيل الزبى — يقرع سنا بسن ويضرب اخماسا لأسداس . يذكر يوم ذى المسألة فيملكه الأسى من عمليكه الحجاج ، ويذكر موقفه بين يدى ربه — وقد علم فتعامى وسمع فتصامم — فتأخذه لوعة يحثها التذكار بين ضجيج النفوس بمر الشكاوى ؟

أدبه :

كان للحجاج بصر بالادب وتقريب للأدباء كدأب الخلفاء وخاصة عبد الملك حتى كان الأدب عنده من وسائل الشفاعة لأصحابه فى أحرج المواطن . له مساجلات مشهورة مع الأدباء ، وسمر يقضى فيه الليل كله أحيانا . ثم تستطيع أن تطالع له من الكتب ما يربى على

المئات وتقرأ له من الخطب الشيء ، الكثير والفضل في ذلك كله يرجع إلى الحودث والفتن فهما من أقوى البواعث والاسباب ، على أنك ستعرف مبلغ أدبه أو طرفا من ذلك عند الكلام على خطبه بعد هذا بقليل

وفاته :

كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

لو عمل الحجاج لهذا اليوم لما بكى منه ولما أبكى جلساءه . ولو استطاع الحجاج أن يفر من هذا اليوم كما فر منه من تعقبهم بالقتل والتشريد لفعل قالوا انه لما حضرته الوفاة وأيقن أن الموت نزل بساحته قال : اسندوني ، وأذن للناس فدخلوا عليه : فذكر الموت وكربه ، والقبر وضمه واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وجرم ذنبه ، بين يدى ربه ثم بكى وأبكى ثم أمر أن يكتب الى الوليد بن عبدالملك

« أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه فجاء الاسد فبطش بالراعي ، ومزق المرعى ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه ، وتكفيرا لما حمل من ذنوبه :

إذا ما لقيت الله عنى راضيا فان شفاء النفس فيما هنالك . الخ

ثم دخل عليه ابن يعلى فقال كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟ فقال يا يعلى : غما شديدا ، وجهدا جهيدا ، وألما مضيضا ونزعا جريضا ، وزادا قليلا ، وسفرا طويلا ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار ! فأخذ يعنفه ابن يعلى ويذكره بسيئات أعماله ، وإذلال نفسه في إعزاز بني مروان ، وتخريب داره الباقية في تعمير دور آل مروان فتنفس

الحجاج الصعداء . وخنقته العبرة ، ثم بسر ثم نظر ثم أنشد :

رب إن العباد قد أيأسونى ورجائى الغداة فيك عظيم

ثم فاضت روحه وكان ذلك سنة ٩٥ هـ وبذلك انتهت حياة رجل نيفت على الخمسين سنة ومن العجب أنه هو القائل :

«إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه أو يفكر فى معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة » فماذا دهاه فألهاه ! !

(خطبه) : هذا هو الحجاج الذى كان يرمى الناس بلسانه العضب فى فقر من خطبه تفعل فى قلوب القوم مالا تفعل السهام بالأجسام والويل كل الويل لهم إذا هو أردف ذلك بشعر قديم يتمثل به أو بآية من كتاب الله يرميهم بها . ويا خطبهم إذا علا المنبر متلفعا بمطرفه فيخطبهم رويدا رويدا حتى لا يكاد يسمع بديئا ثم يتزايد قليلا قليلا مخرجا يده من مطرفه شيئا فشيئا فاذا به يزجر الزجرة بالفقرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد ! ! فى أسلوب يصور الباطل حقا والحق باطلا ـ حدثنا مالك بن دينار قائلا : « ما رأيت أحدا أبين من الحجاج ! إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم اليه حتى أنى لأحسبه صادقا وأظنهم كاذبين ! » كل ذلك فى لطف مدخل وسهولة مطلع ، إلى جلال مخرج وحسن مقطع . أرأيت السيف كيف يصيب سواء المفصل ! ؟

مما تقدم تعرف : أن خطبه (تمتاز) : بأسر الأسلوب فى شدة

مشفوعة بالوعيد والنذر كما تمتاز أيضا بقصر الفقر ، والبصر بمواقع الحجج والاقتباس من القرآن الكريم والتمثل بالوجز من الشعر القديم والنبو عن اللحن فى ديباجة قوية اللفظ ، غليظة المعنى ، تعلوها خشونة تنم عن أبلغ حرص فى تأثيل ملك بنى مروان ، والتنقص من أقدار من لايرى رأيهم ، أو لايخضع تحت رايتهم ، ولو انتهى ذلك بحصد الأرواح كى يصدق القول العمل ! وربما ذهب فى خطبه مذهب الساحر ببيانه فيذهل الناس ، ويفسد على السامعين تدبيرهم مما يرين على قلوبهم فيقولون «نعم» فى موضع «لا» مما يداهمهم به، على أنه له أساليب مبتكرة وتعابير جديدة مثل «مايقعقع لى بالشنان - لأعصبنكم عصب السلمة — ياأهل الشام إنكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنها المدر ؛ ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب» إلى تشبيهاته البديعة . . .

وبعد : فالحجاج خطيب مجل ، وكاتب مصل ، له فى السياسة كل حظ وليس له فى الشعر حظ . وما أشبه كتبه بكتب الخليفة عبد الملك وسائر الولاة قبله أظهر مميزاتها الاختصار والايجاز إلا إذا اقتضى المقام بسطا أو تقريبا لمن يكتب إليه فيجعله عند رأيه وبغيته — على أنك تستطيع أن تعد من حسناته : جمع كلمة المسلمين ، واستظلالهم تحت راية الخليفة العربى الأموى وقد كادوا يتفرقون أيدى سبأ ولا تنس يده الطولى فى وضع النقط والشكل للمصحف خشية أن تعبث به الأيام ، إلى نسخ طائفة من المصاحف - رسم عثمان - وبعثها إلى مابقى من الأمصار .

نماذج من خطبه :

(١) صعد المنبر يوما فقال ، «أيها الناس : اقدعوا (١) هذه الأنفس فانها أسأل شيء إذا أعطيت وأمنع شيء إذا سئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما (٢) فقادها بخطامها فى الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فانى رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه »

(٢) أقبل الحجاج أميرا على العراق سنة ٧٥ هـ فدخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة فبدأ بالمسجد ثم صعد المنبر معتما بعمامة خز حمراء قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا فسكت ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل هذا على العراق ! وقال بعضهم وقد تناول حصى بيده : ألا أحصبه لكم ! فقالوا أمهل حتى ننظر . فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه وخطب خطبته الآتية فجعل الحصى ينتثر من يد أمسكت به وصاحبها لا يشعر . قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى (٣)

---

(١) اقدعوا امنعوا .

(٢) الخطام حبل يثنى طرفه على مخطم البعير ليقاد به ، والزمام حبل رقيق يجعل على أنفه

(٣) البيت لسحيم بن وثيل الرياحى قاله الحجاج متمثلا به — الثنايا جمع ثنية الطريق فى الجبل : أراد أنه جلد صبور يطلع الثنايا فى ارتفاعها وصعوبتها

ثم قال : ياأهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى – ثم قال –

هـذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم (١)

ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم (٢)

ثم قال

قد لفها الليـل بعصلبي أروع خراج من الدوى (٣)

مهاجر ليس باعرابى

ثم قال

والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد (٤)

لا بد مما ليس عنه بد

إنى والله ياأهل العراق . مايقعقع لى بالشنان ، (٥) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت (٦) عن ذكاء وفتشت عن تجربة ، وإن أمير

---

(١) الشعر لرشيد العنزى قاله في حطم القيسى : وزيم : اسم ناقة أو فرس والسواق الحطم الذى لا يبقى من السنين شيئا

(٢) الوضم : ما قطع عليه اللحم من الخشب

(٣) عصلبي شديد وأصله عصبي بزيادة اللام كذا نقله الصاغانى » والاروع الذكى والدو : صحراء ملساء لا علامة بها فسميت الصحراء دوية لانك تسمع لها دويا بالليل والحجاج يريد أننى خراج من كل غماء شديد

(٤) العرد الشديد والبكر : بفتح الباء : الفتى من الابل

(٥) الشنان جمع شن : الجلد اليابس والقعقعة صوته يريد : أنه : لا يخدع ولا يروع

(٦) فررت بضم الفاء و كسر الراء الاولى أى بحثت وأصله الكشف عن أسنان الدابة ليعرف ماسنها يريد أنه أستتم كمال العقل وأصالة الرأى

المؤمنين — أطال الله بقاءه — نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها (١) فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى لانكم طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأعصبنكم عصب السلمة (٢) ولأضربنكم ضرب غرائب لأبل (٣) فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإنى والله ماأقول الا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ، ولاأخلق الا فريت (٤) وان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لاأجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ! الخ

كتب الى الوليد يصف سيرته له أجابة لرغبته .

« إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى فأدنيت السيد المطاع فى قومه ووليت الحرب الحازم لأمره وقلدت الخراج الموفر لأمانته ؛ وصرفت السيف إلى النطف المسىء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب »

«١» عجم العود : ان تعضه بأسنانك لتعرف مبلغ صلابته

«٢» السلمة : شجرة شائكة يعسر خرط ورقها وعصبها جمع ورقها الى بعضه ثم يضربها الخابط فيتناثر منها

«٣» مثل يضربه تهديدا لرعيته وذلك أن الأبل إذا وردت الماء ودخلت بينها غريبة ضربها الراعى أشد الضرب حتي تخرج من بينهن

«٤» لاأقدر شيئا الاقطعته يريد أنه يمضي ماعزم عليه لامحالة